زخارف الأشجار والفواكه في النحاسيات

الجزائرية خلال الفترة العثمانية

د. شريفة طيان ساحد

أستاذة محاضرة "أ" -معهد الآثار

المقدمة

تعتبر الزخارف النباتية أحد المواضيع الرئيسية التي لجأ إليها الفنان المسلم تلبية لنداء العقيدة الإسلامية، حيث عرّفت النباتات في القران الكريم بأنها ميزة الجنة كما عرّفت بالروضتين وجنة النعيم وجنة عدن وأشجار مظللة وفواكه طيبة ولذيذة، كما أن نباتات الجنة تثبت حدود الفضاء الافتراضي حيث تتقيّد نباتات الدنيا، لذا تفنّن الخطاطون والمزخرفون في استعمال المواضيع النباتية في جل أعمالهم الفنية[1].

تعتبر الأشجار والفواكه من بين أهم العناصر الزخرفية النباتية، وقد أتقن الفنان الجزائري تجسيدها بشتى الأساليب والطرق بدقة متناهية سواء بالأسلوب الطبيعي أو بالأسلوب المحوّر أو الاصطلاحي.

رسوم الأشجار

تسمى الزخرفة التي تحتوي على عنصر الأشجار بالزخارف المشجرة أو الشجرانية،وقد ظهرت كعنصر زخرفي في معظم الحضارات القديمة، كما استخدمت بكثرة في الزخرفة الإسلامية وشاعت أنواع كثيرة منها في الآثار الإسلامية الثابتة والمنقولة لأنها لم تكن من العناصر المحرّمة. وكان من أبرز نماذج هذه الأشجار ما وجد منها في فسيفساء كل من قبة الصخرة ببيت المقدس والجامع الأموي بدمشق وغيرهما من القصور الأموية[2].

لم يقتصر استعمال عنصر الأشجار في الزخرفة الإسلامية فقط بل استعملتها شعوب العالم كله عبر العصور، فاعتمد البابليون على شجرة الحياة التي ترمز عندهم للحياة الأبدية واعتقادا منهم أن

[1] Chebel M., Dictionnaire des symboles musulmans, Albin Michel, Paris, 1995, p. 172.

[2] محمد رزق عاصم، معجم مصطلحات العمارة و الفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، 2000، ص 133.

الإنسان قد خلق من أوراقها، واعتمد الإغريق والرومان على أشجار الأكنتس والرند الوردي والزيتون، واستعمل المسيحيون أوراق وفروع أشجار العنب[3].

وكانت أشكال هذه الأشجار توزع في الزخرفة الإسلامية منسجمة بأسلوب طبيعي وبأسلوب محوّر على السواء، وأشهر أشكال الأشجار التي استعان بها الفنان المسلم هي أشجار النخيل والزيتون واللوز وغيرها من الأنواع الضخمة، وتنبثق منها أغصان تحمل الفواكه بينما تنتشر الأوراق في أسفلها في قلة وكثرة[4].

ترمز الشجرة إلى دلالتين وهما التفكير والعقل،نتجا من تكوين الشجرة نفسها التي تتكون من ثلاثة أجزاء أساسية وهي الجذع والأغصان والثمار، فيرمز الجذع إلى مصدر العلم، وترمز الأغصان إلى الكليات بينما الثمار ترمز إلى النتائج الحتمية المتحصّل عليها من التفكير والعلم. تمثل الشجرة عموما الخلود والشوق كما ترمز للعظمة والسمو والطيبة الفائقة[5]، وقد جاء ذكر الشجرة والفاكهة في القرآن الكريم في عدة سور﴿**وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾[6].﴿ **فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى**﴾[7].

لقد تواصل استعمال عنصر الشجرة في زخارف الفنون العثمانية حيث وجدت مجموعة من مختلف أشكال الأشجار، وشاع منها السرو والنخيل والحياة وعدد من أشجار الفواكه والأشجار المزهرة[8].

وقد اعتمد الفنان العثماني عليها في زخرفة عمائره وتحفه خاصة في زخرفة السجاجيد والمطرزات والمربعات الخزفية، بشكل محوّر أو اصطلاحي بحيث تتكوّن من الجذع والأغصان والأوراق المرسومة بأسلوب اصطلاحي بخط عمودي، يمثل الجذع بخطوط صغيرة مائلة موضوعة بالتناوب على الجذع كناية عن الأغصان والأوراق، ويعتبر هذا الشكل من أبسط الأشكال لكنه لم يمنع من وجود زخارف مشجرة أكثر تعقيدا وزخرفة حتى يصعب معرفتها. تتلاءم أشكال هذه الأشجار العمودية لتفرقة وتحديد موضوعين زخرفيين. أما بالنسبة لتعدد أشكال الأشجار فتختلف حسب نوعية

---

[3]حورية شريد، " زخارف شجر اليهود في الفن الجزائري أثناء العهد العثماني" في حوليات المتحف الوطني للآثار، ع. 11، 2002، ص 44.

[4] محمد رزق عاصم، المرجع السابق، ص 133.

[5]Chebel M., Op. Cit., pp: 50- 51.

[6]**الآية 35سورة البقرة.**

[7]**الآية 120 سورة طه.**

[8] أحمد المفتي، فن الزخرفة والتوريق، دار دمشق، 1997، ص 10-11.

المادة المراد زخرفتها[9]. وأهم الأنواع التي ظهرت وتجلت في الزخرفة العثمانية هما: شجرة السرو (selvi)، تعرف باسم شجرة الحيّات لأنها مأوى الحيّات[10]وشجرة النخيل التي تعرف في اللغة العثمانية باسم Hurma agaça.

شجرة السرو (صور رقم:1-2)

اهتم العثمانيون بكثرة بهذه الشجرة وأولوا لها مكانة خاصة لما تمتاز به عن باقي الأشجار من صفات، وهي من بين الأشجار التي تزرع في المقابر وذلك قصد قضائها على الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى. كما تتمتع هذه الشجرة بأهمية خاصة لأنها ترمز للخلود في معتقداتهم وذلك لدوام خضرة أوراقها على طول فصول السنة، وبهذا فهي تعبّر عن الحياة المتجددة والخالدة. وكانت تشكل دائما باللون الأخضر لتحاكي لونها الأصلي في الطبيعة ومن ثم نشأ تقديس الأتراك العثمانيين للون الأخضر.وقد أكثر الفنان العثماني في استعمال هذا العنصر في زخارفهم الخاصة بالأماكن المقدسة مثل المحاريب والميضئات كما رسمت على سجاجيد الصلاة[11]. ولعل حبهم لها يرجع إلى طولها وتطلعها نحو الأفق أو قد تذكّرهم بمآذن المساجد لذا ترسم في معظم الأحيان في وضع عمودي[12].

ظهر شكل هذه الشجرة في الفنون الجزائرية في العهد العثماني، وأبدى لها الفنان مكانة خاصة فمثّلها أحسن تمثيل، وبرزت بقوة في التحف المعدنية، إذ رسمت طويلة ونحيلة وهي الميزة التي عرفت بها في الفن الجزائري خلال العهد العثماني[13]، كما يتخلل جذوعها أو أبدانها زخارف ملتوية وتكون مدعمة في بعض الأحيان بقواعد عالية تتماشى وأشكال المزهريات التي ترسم جنبا إلى جنب، كما تتوسط هذه الأشجار المواضيع الرئيسية بحيث تشكّل في غالب الأحيان محور الزخرفة (شكل رقم:1).

تظهر شجرة السرو جليا في التحف النحاسية خاصة الصواني التي تشغل شعاعها، كما تشغل أوساط الدلاء(المحبس) مكوّنة بذلك الموضوع الرئيسي والأساسي.

---

[9]Arseven C.E., Les arts décoratifs turcs. Milli Egitim Basimevi, Istanbul, S.D, p. 60.

[10]ابن البيطار، تنقيح الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، تحقيق، محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص 207.

[11] سعاد ماهر، الخزف التركي، الجهاز المركزي للكتب الجامعية و المدرسية و الوسائل التعليمية، 1977، ص 75.

[12]Arseven C.E., Op. Cit. p. 69.

[13]MorletJ., Catalogue raisonné des collections d'art musulman. t, 1. S.L., S.D. p. 193.

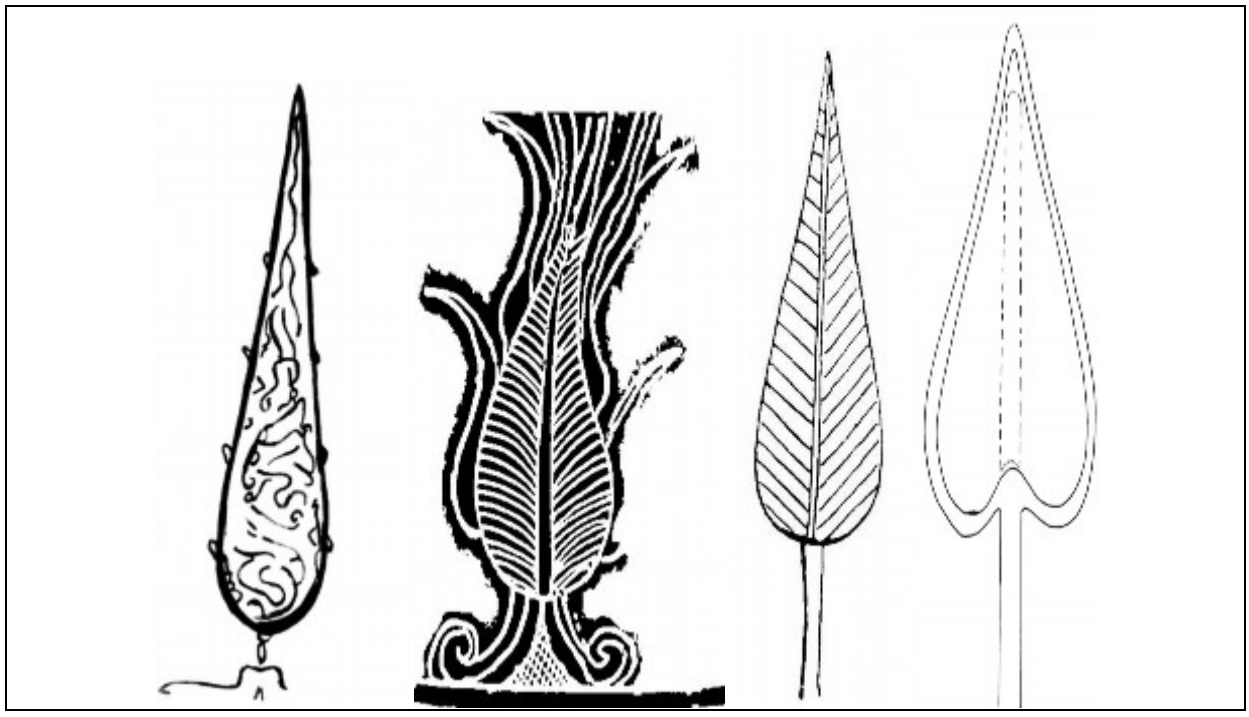

شكل رقم:1 أشكال شجرة السرو

شجرة النخيل (صور رقم:3-4)

تعتبر شجرة النخيل من أقدم الأشجار التي عرفها الإنسان خاصة عرب الصحاري،وكان لها عند الأتراك معنى ديني خاص، إذ أنها اعتبرت من أشجار الجنة حيث تدل على البركة والسعادة والشموخ والاستطالة وغيرها من المدلولات[14]، استعملت مثلها مثل شجرة السرو في الزخرفة الإسلامية العثمانية، حيث مثلت على مختلف المنتجات الصناعية الفنية فأعطت للفن الإسلامي ذوقا وجمالا رائعين، وكانت أكثر الأشجار تقديسا عند المسلمين فهي ترمز لعظمة الكون في القرآن الكريم﴿ **وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضر نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانيةوجنات وأعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون**﴾[15].

ترمز شجرة النخيل عند اليهود للنصر والنجاح، وترمز عند الأشوريين القدماء للخصوبة، و ترمز عند أهل الأندلس للوعة الشوق والحنين للوطن الأم المبعدين عن ديارهم وأوطانهم، أما عند الصوفية فهي ترمز للنشاط الروحي[16].

[14]Arseven C.E., Op. Cit., p.60 .

[15]**الآية 99، سورة الأنعام.**

[16]Chebel M., Op. Cit., pp: 320-321.

يحتمل أن يعود أصلها إلى الخليج العربي وبالضبط إلى البحرين، ومنه انتقلت إلى بابل حيث يعتبرها سكان الصحراء هبة من عند الله وغذاء جيد للجسم، فإن جريدها يستعمل عرائش وسقوف وجذوعها أعمدة وخوصها بسط ومكاحل وأثاث وليفها حبال وحشو للوسائد والنوى غذاء للإبل والدواب لذلك يقال عنها أنها شجرة العرب المباركة[17].

ظهرت شجرة النخيل في الفنون الجزائرية بقوة حيث اتسمت بالتنوع ودقة التنفيذ، وتجلت بشكل كبير في القطع النحاسية جنبا إلى جنب مع شجرة السرو، حيث رسمت محوّرة وممثلة بجذوعها وأغصانها، كما تظهر أحيانا بثمارها المتدلية من جهتيها،بالإضافة إلى ذلك فإنها تكوّن الموضوع الرئيسي في بعض التحف(شكل رقم:2).

ترمز الشجرة عند أهل الأندلس كما سبق ذكره إلى الحنين للوطن الأم، فهل يعنى ذلك أن القطع النحاسية المزخرفة بالنخيل قام بصنعها الأندلسيون؟ يرجّح أن تكون التحف المزخرفة بأشجار النخيل نفّذها الصناع الأندلسيون الذين استقروا بالجزائر وساهموا بتطوير كل أنواع الفنون.

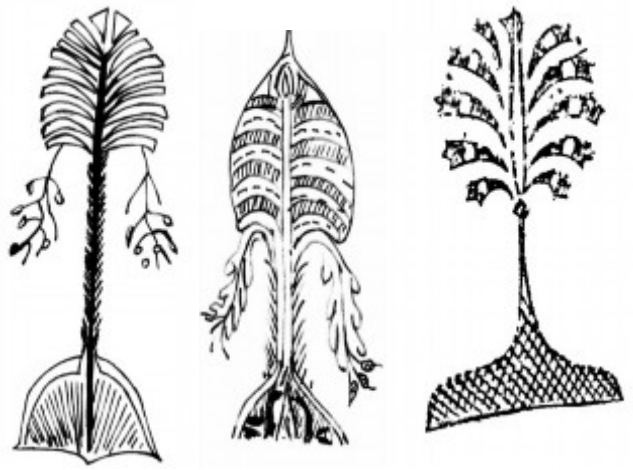

شكل رقم:2-أشكال شجرة النخيل.

رسوم الفواكه والثمار(صورة رقم:5)

الفاكهة هي كل ما يتنعم بأكله رطبا كان أو يابسا كالتين والزبيب والرمان، مصداقا لقوله تعالى:﴿**فيهما فاكهة ونخل ورمان**﴾[18].

وقد عرفت العمارة الإسلامية المبكرة ولا سيما في قبة الصخرة بالقدس الشريف والجامع الأموي في دمشق عنصر الفواكه فيما نقش فيهما من الزخارف الفسيفسائية، فقد وجدت هذه العناصر التي رسمت بأسلوب طبيعي متداخلة مع الأوراق أو موزّعة فوقها أو مختلطة معها في شكل

---

[17] طالب بسام، " النخلة شجرة العرب المباركة و سيدة الشجر" مجلة الدوحة، ع. 117، 1985، ص 5.

[18] **الآية 68، سورة الرحمن.**

أكاليل مختلفة من أشجار النخيل والعنب والرمان والكمثرى والكرز وغيرها من أنواع الفواكه الأخرى[19]، وكانت الثمار من العناصر الزخرفية التي شاع استعمالها في الزخرفة الإسلامية عموما حيث تجسدت بشتى التقنيات والطرق الفنية على نماذج ومواد مختلفة[20].

كما اعتبرت الفاكهة مصدر ثري في الموضوعات التي وإن كانت نادرة حتى القرن 12 ه/ 18 م إلا أنها أضحت واسعة الانتشار فيما بعد كالعنب والرمان فهما يشكلان أهمية متميزة باعتبارهما يتطلبان خاصية رمزية[21]. وقد اهتم الفنان المسلم في العهد العثماني خاصة في القرن 12 ه/ 18 م بحيث أن الثمار لم تشكل موضوعا قائما بذاته وإنما تستعمل كعناصر ثانوية مرافقة لعناصر زخرفية أخرى، وكثيرا ما استعمل الفنان خلال هذه الفترة فواكه التفاح والخوخ والتين، وعلى وجه الخصوص الرمان والبلح باعتبارهما فواكه الجنة، وقد اختيرت هذه الأشكال المستديرة للحصول على عناصر تتميز بانحناءات رشيقة.

كما كان يستعمل نوع واحد بمفرده داخل آنية ولكنها كثيرا ما تكون عبارة عن مجموعة فاكهة من نوع واحد توضع بطريقة متماثلة في آنية، وكانت توضع هذه الفواكه أو الثمار دون أوراق نباتية أو فروع وكأنها تقدم للضيوف. وقد كانت فاكهة الرمان الذي تعد ثماره نافعة كثير الاستعمال بالإضافة إلى أزهاره المستخدمة في الزخرفة، وقد كان يبرز في غالب الأحيان مفتوحة بحيث تظهر حبيباته متراصة مع بعضها البعض، ويعتبر الضيوف الرمان رمزا للوفرة والرخاء لكثرة حبيباته، كما يعد الرمان من الأشجار والثمار النافعة التي استخدمت أزهاره وثماره للزخرفة، وقد تألق في زخرفة العديد من التحف خاصة المعدنية منها، كما ظهر في عدة مواضع جنبا إلى جنب مع فاكهة البلح المتدلية من جريد النخيل(شكل رقم: 3).

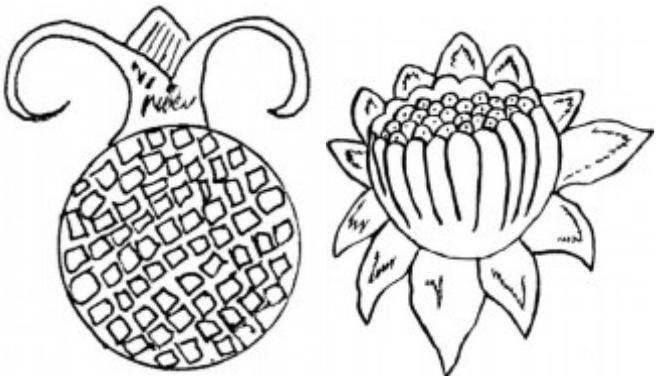

شكل رقم: 3- أشكال فاكهة الرمان.

[19]Ettinghausen R., La peinture arabe, Genève, 1977, p.22.

[20] ديماند (م. س.)، الفنون الإسلامية، دائرة المعارف، 1958، ص 26.

[21] أحمد المفتي، المرجع السابق، ص 11.

بالإضافة إلى ذلك فقد استعمل الفنان العنب وعناقيده وأوراقه رغم كراهيته لهذه الفاكهة التي تذكّره بالوثنية وباعتبارها منبع الخمور التي حرّمتها الشريعة الإسلامية[22]، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿ **وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**﴾[23].

كما ظهرت فواكه أخرى مثل الكرز والخوخ بالإضافة إلى عناقيد العنب القليلة الاستعمال، والتي ظهر منها نوع واحد فقط في زخرفة إحدى التحف المعدنية (شكل رقم:4).

يضاف إلى هذه الفواكه والثمار عناصر أخرى استعملت في زخرفة التحف وهي سنابل القمح التي ظهرت في بعض القطع المعدنية.

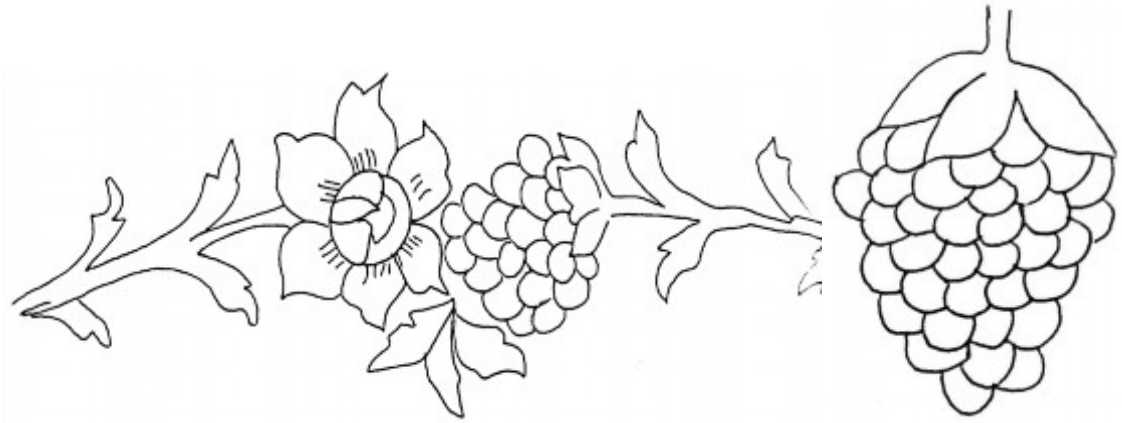

شكل رقم:4-عنقودا عنب

يمكن القول من خلال هذه الدراسة أن زخرفة أشجار السرو والنخيل والفواكه نفذت بتناسق كبير راعى فيها الفنان التماثل والتكرار منفذة بأساليب محورة أو طبيعية أو ممثلة. لقد استلهم الفنان العناصر النباتية الزهرية والمشجرة من طبيعة الحدائق والبساتين التي تنمو بها الأشجار المثمرة والأزهار والورود طول أيام السنة. كما امتزجت العناصر النباتية مع العناصر العمائرية حيث حقق الفنان عنصري التوازن والانسجام في التكوين العام عن طريق وضع رسم أشجار السرو والنخيل على جانبي المباني حيث ساهمت في إضفاء المظهر الزخرفي الذي امتزج مع العناصر العمائرية في توافق تام منقطع النظير

كما ظهرت فاكهة الرمان منبثقة من المزهريات جنبا إلى جنب مع أشجار النخيل والسرو، باعتبار الرمان فاكهة الجنة والنخيل شجرة مباركة وكلاهما مذكوران في القرآن الكريم، أما شجرة

[22] Arseven C.E., Op. Cit., pp: 70-71.

[23] **الآية 141، سورة الأنعام.**

السرو فهي شجرة مقدسة عند الأتراك العثمانيين وترمز للخلود. يتضح من خلال هذا التركيب الفني أن الزخرفة لم تنفذ بطريقة عشوائية بل كانت مقصودة لذاتها وهي توضيح العلاقة الوطيدة بين فواكه الجنة من جهة و بين شجرة السرو من جهة ثانية، باعتبار الجنة وشجرة السرو هما الخلود والدوام، كما أن شجرة السرو ترسم طويلة ونحيلة وموضوعة حسب الشعاع، وهي ميزة الفن الجزائري في العهد العثماني.

بالنسبة لشجرة النخيل واستنادا إلى رمزيتها عند أهل الأندلس والتي ترمز إلى الحنين إلى الوطن الأم، نستطيع القول بما لا يدع مجالا للشك أن التحف النحاسية التي رسمت عليها زخرفة النخيل قد قام بصنعها وزخرفتها الأندلسيون مما يؤكد البصمة الأندلسية في المواضيع الزخرفية.

صورة رقم:1 مرجل مزخرف بأشجار السرو والنخيل وفاكهة الرمان

محفوظ بالمتحف العمومي الوطني للآثار القديمة. (عن: شريفة طيان)

صورة رقم: 2 محبس مزخرف بأشجار السرو والنخيل وفاكهة الرمان

محفوظ بالمتحف العمومي الوطني للفنون والتقاليد الشعبية- الجزائر -(عن: شريفة طيان)

صورة رقم:3 صينية مزخرفة بأشجار السرو والنخيل بالتناوب مع زخارف عمائرية.

محفوظ بالمتحف العمومي الوطني للآثار القديمة. (عن: شريفة طيان)

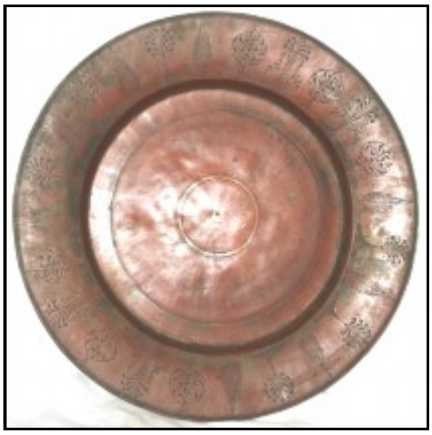

صورة رقم:4 قصعة مزخرفة الحافة بأشكال مختلفة من أشجار السرو والنخيل.

محفوظ بالمتحف العمومي الوطني للآثار القديمة. (عن: شريفة طيان)

صورة رقم:5 حوض ميضأة زخرفت حافة الحوض بعناقيد العنب.

محفوظ بالمتحف العمومي الوطني الباردو - الجزائر -(عن: شريفة طيان)